مسرحيـــة:

ضجة في مدينة الرقة

بقلم/ محمد الحسناوي*

المشهد الأول

(الزمان: قبل غروب الشمس. المكان: ساحة المرجة في مدينة دمشق. يبدو منها برجها المعروف في الطرف الأيسر من المسرح. في الطرف الأيمن يبدو مرآب سيارات «دمشق - حلب»، مشهد سيارة «باص» كبيرة ينزل منها المسافرون القادمون من حلب. رجال عابرون. شرطي. رجل في الأربعين ينزل من السيارة بعد أن سبقه في النزول عدد من المسافرين. بيده صرّة ثياب. علامات التعب بادية عليه. يخطو خطوات، ثم يتفحّص صدره. لا يجد شيئاً. يتفحص جيوبه. يرجع إلى السيارة بسرعة، يبحث عن شيء مفقود فيها. يسأل المسافرين. يسأل سائق السيارة، يسأل معاونه. ينفي كلّ منهم أنه وجد شيئاً)

أبو محمود: نقودي يا ناس. نقودي ضاعت. نقودي سرقت. ثلاثون ألف ليرة سورية يا ناس، ضاعت. والله ليست كلها ملكي. والله معظمها دَيْنٌ. أريد أن أشتري سيارة أسترزق بها، يا ناس. يا موحدين. حتي هويّتي الشخصية سرقوها.

رجل عابر: سلّم أمرك إلى الله.

أبو محمود: صدقت. سلّمت أمري إلى الله. الحمد لله على كل حال. لكن الهوية الشخصية؟

عابر٢: أحمد ربك أنك وصلت سالماً.

أبو محمود: نعم. الحمد لله أنني وصلت سالماً. كم تعرّضت للموت في حياتي، ونجّاني الله تعالى، البارىء المصّورُ، مقدّرُ الأقدار والأعمار. يا رب، سلمت أمري إليك. يا ربّ أعنّي على العودة، إلى أهلي.

شرطي: ابحث عن أحد معارفك، أحد أبناء بلدتك يساعدك على العودة إلى بلدك. وكل صعب يهون.

أبو محمود: أنا غريب. لكن كل صعب يهون بإذن الله. الحمد لله على كل حال.

المشهد الثاني

(الزمان: وقت الفجر، قبل طلوع الشمس بقليل. المكان: شارع في مدينة الرقة السورية. يبدو منه في خلفية المسرح طرف مسجد. في طرف المسرح الأيمن رجل نائم على الرصيف أمام باب دار، لا يُغطّيه سوى شماخ مرقّط بالأحمر فوق وجهه. ثلاثة رجال قادمون من المسجد يتوقفون عند الرجل النائم)

أبو خالد: يا شباب، من هذا الرجل النائم هنا؟

أبو حسن: دعنا منه، ولننصرف إلى أعمالنا قبل أن تتعطّل.

أبو مصطفى: زوجتي تنتظرني لأحلب الجاموسة.

أبو حسن: أنا سوف أسافر إلى حلب قبل أن تحمرّ عين الشمس.

أبو خالد: وأنا أليس لي عمل؟ الفواكه والخضروات مكوّمة الآن أمام باب الدكان، ولكن لا بد أن نعرف من هذا الرجل النائم هنا.

أبو حسن: الدنيا صيف، يا أبا خالد. إنسان عابر، مسافر ليس له أحد، تعب، فنام. ألا تنام أنت نفسك على الأرض؟

أبو خالد: يا جماعة الخير لا تستعجلوا. قلبي يقول لي: يوجد شيء غريب في هذا الرجل.

أبو مصطفى: أي شيء غريب؟ رجل نعسان، والشمس ما طلعت حتى الآن؟

أبوخالد: صلّوا على النبي. الله يرضى عليكم.

أبو حسن وأبو مصطفى (بصوت واحد) اللهم صلّ على النبي.

أبو خالد: ما رأيكم لو كشفت الشماخ عن وجهه؟

أبو حسن: هل هذا يجوز شرعاً؟ يا رجل؟

أبوخالد: أنا لن أتحرك من هنا حتى أعرف قصة هذا الرجل؟

أبوحسن وأبومصطفى: (بصوتٍ واحدٍ) ونحن لن ندعك تضيّع وقتك.

أبوخالد: ليس في هذا تضييع وقت.

أبو حسن: لا تحشر نفسك فيما لا يعنيك..

أبومصطفى: تسمع ما لا يرضيك

أبوخالد: اللهم صلّ على النبي.

الآخران: اللهم صلّ على النبي.

(يتململ الرجل النائم على صوت الضجة. يحاول النهوض. يقترب منه أبوخالد. يكشف الشماخ عن وجهه. تبدو على أبي خالد ثم على رفيقيه علامات المفاجأة والدهشة. الرجل النائم يفيق. يفرك جفنيه بقوة. يتجه نحو الرجال الثلاثة الواقفين حوله. يتراجع بعضهم).

أبومحمود: السلام عليكم.

(*) أديب وناقد سوري، صدر له عدة دواوين، منها: في غيابة الجب، عودة الغائب، وصدرت له عدة دراسات، منها: الفاصلة في القرآن، في الأدب والأدب الإسلامي، وغيرها.

فجأة تعالى التكبير والتهليل.. ووقفت الشُرطة باهتة!

أبوخالد: (صائحاً) أبو محـ .. م ..ـود؟

أبو محمود: نعم. أبو محمود.

(في هذه اللحظة انفتح باب الدار على مصراعيه. اندفع منه شاب في العشرين من عمره صارخاً...)

محمود: لا إله إلاّ الله. يا ناس، هل قامت القيامة؟

الرجال الثلاثة: لا إله إلاّ الله. محمد رسول الله. أليس هذا أباك يا محمود؟

محمود: (متفرّساً) إي والله هذا أبي. هل هذا معقول؟ (محمود يقبل على والده. يتعانقان)

(الرجال تخلّوا عن ذهولهم أخيراً. شرعوا يسلمون على أبي محمود ويعانقونه. الأولاد تصايحوا حول أبيهم فرحين. النساء زغردن من وراء المسرح. تسامع أهل الرقة بالخبر، فأقبلوا يسلمون على أبي محمود. العيارات النارية شاركت في الفرح).

أبومحمود: (لنفسه) أنا أستغرب والله مما يحدث. كم سافرت قبل هذه المرة، لكنني لم أُستقبَل بمثل هذه الحفاوة والحشود. لا إله إلاّ الله... ماذا جرى لكم يا أهل الرقة؟ ماذا جرى لكم يا أولادي يا أحبابي؟

المشهد الثالث

(الزمان: الوقت نفسه. المكان: باحة دار أبي محمود الواسعة. في صدر الدار الكائن في خلفية المسرح وضعت أرائك. وعلى جانبي المسرح الأيمن والأيسر صفّت كراسي كثيرة. الباحة ملآى بالأقارب والجيران والزائرين. أبو محمود في صدر المجلس يهمّ بالنهوض للقيام بشرف الضيافة. يعترضه بعض الحاضرين)

زائر١: (مجاور لأبي محمود في المجلس) اجلس أنت يا أبا محمود. نحن كلّنا خدّامك.

أبو محمود: أستغفر الله.

زائر٢: (مجاور لأبي محمود على الجهة الأخرى) من أدنى حقوقك علينا أن نسعى على الزائرين ونقوم بخدمتهم.

زائر ٣: (رجل ممن يقومون بخدمة الضيوف، وتوزيع المرطبات) أنت من أولياء الله يا أبا محمود. صلوا يا رجال على النبي المختار.

الحاضرون: اللهم صلّ على سيدنا محمد.

(تعالت الصلوات، وتعالى التهليل والتكبير من جنبات الدار. زغردت العيارات النارية مرّات عدة. رجال الشرطة لا يعترضون).

(أبومحمود يتأمّل ما يجري حوله بسذاجة واستغراب).

أبو محمود: (لنفسه) هل أنا في حُلْمٍ؟ ربّ اجعله خيراً. ربّ اجعله خيراً.

محمود: (في مقدمة المسرح متحدثاً مع بعض الضيوف الذاهلين) طرق والدي الباب بعد منتصف الليل كنت أنا وقتها أغطّ في نوم عميق لا أعلم ماذا يجري. لم تشأ أمي أن توقظني. سألت أمي: من الطارق؟ قال: أنا أبو محمود، يا أم محمود. فعلاً، الصوت لم يكن غريباً على أمي، لكنها لم تصدّق. قالتْ أمي في نفسها: لا بدّ أن هناك لصّاً يريد أن يحتال عليها. وقالت له من وراء الباب: أما تستحيي يا ابن الحرام؟ أبو محمود تحت التراب. إمّا أن تذهب، وإمّا أن أجمع أهل الحارة عليك. سَكَتَ الرجل. قضت أمي الليلة خلف الباب، لا تدري هل هي في حلم أو في يقظة؟ لمّا عرفه الناس، اطمأنت أمي، فأدخلته الدار، وسلّمت عليه مذهولة لا تكاد تصدق عينيها.

زائر١: سبحانك يا ربّ.

زائر٢: سبحان محيي العظام وهي رميم.

زائر٣: هل تصدقون؟ أنا لا أكاد أصدق.

أبو محمود: وأنا كذلك.

(أقبل بعض الناس يحملون الهدايا، ويسلمون على أبي محمود).

زائر٤: (معانقاً أبا محمود) سامحني يا أخي أبا محمود. أنا سامحتك عن كل ما جرى بيننا. أنت رجل صالح تقيّ، وأنا الذي أخطأت معك. لا تؤاخذني. سامحني، يا أخي، سامحني. الله يرضى عليك (يقبله مرة ثانية. يهمّ بتقبيل يديه، فيرفض أبومحمود).

أبو محمود: سامحتك يا أخي منذ اختلفنا. والله سامحتك يا أبا عبدالقادر. وها أنا أسامحك مرة ثانية وثالثة يا أعزّ الأحباب. كيف لا أسامحك يا أخي، أنت جاري وشريكي ورفيق الصبا والشباب؟

زائر٥: (يعانق أبا محمود) سامحني يا أبا محمود.

أبو محمود: سامحتك يا أخي أبا علي. الله يغفر لك ولي وللمسلمين. أنت من أهل المسجد يا أخي. أنا الذي أطلب منك الدعاء والمسامحة. ماذا جرى لي ولكم يا أهل الرقة، حتى تعيدوا الاحتفال بعد مضيّ ثلاثين سنة، كدت أنسى نفسي فيها؟ هل اعتقلت مرة ثانية؟ هل أطلقوا سراحي من جديد؟ لا أدري. هل بلغكم أنني حرّرت بيت المقدس؟ هل أشبعت الجياع، وكسوت العرايا؟ ماذا فعلت يا أهل الرقة؟ يا أحباب.

زائر١: (ممن يخدمون الضيوف) أنت وليّ من أولياء الله يا أبا محمود. صلّ على النبي. صلّوا على النبي المختار يا رجال.

الحاضرون: اللهم صلّ على سيدنا محمد.

أبومحمود: سلّمتُ أمري إلى الله. الحمد لله على كل حال.

زائر٢: حدّثنا عن اعتقالك أيام الفرنسيين.

أبومحمود: (ينهض، يتحدث وهو يتمشى) أنا تحت أمركم. يا مرحبا بالأحباب. في عهد الفرنسيين منذ ثلاثين سنة اعتُقِلتُ (يصمت قليلاً. أهل الدار جميعاً والزائرون يسكتون. يتابع) اعتقلوني مع عدد كبير من السياسيين المجاهدين، ووضعونا في سجن «المية ومية» بلبنان طوال أيام الحرب

العالمية الثانية. كنت أضحك عليهم في نفسي من جهلهم. اعتقلوني وأنا إنسان بسيط، لا أكاد أعرف القراءة والكتابة، تعلمتها على كبر. كنت - والشهادة لله - أكره الفرنسيين والحلفاء، وأميل إلى الأتراك. كنت أتحدى قوانين الاحتلال الفرنسي..

زائر: (مقاطعاً أبا محمود) طيب أبا محمود.

أبومحمود: (متابعاً) كنت أتاجر بأوراق الكتابة، وأقلام الرصاص، والبارود، والأسلحة المهربة. لم يستطيعوا أن يضبطوني مرة واحدة في هذه التجارة الخطرة المحببة، برغم الوشايات وحملات التفتيش. ما أعذبها من لعبة أسهم فيها الشرطة ورجال الأمن الوطنيون، بتحذيراتهم التي تصل إلينا قبل المداهمات بدقائق معدودة تكفي لنقل الأشياء بسرعة إلى مكان آخر.

زائر: طيب يا أبا محمود

أبو محمود: مع ذلك اعتقلوني، ووضعوني في السجن، مع رئيس وزراء أفغانستان، ومع حجاج أتراك، وسياح هنود، وأعضاء مجلس النواب السوري، ومشايخ لبنانيين. أخيراً بعد شهور أفرجوا عني، وعدت إلى الرقة فخرج أهلها على بكرة أبيهم، يستقبلونني ويهنئونني، مثل هذا اليوم، فماذا جرى حتى يعاد الاستقبال؟

زائر: أنت وليّ يا أبا محمود. صلّوا على النبي المختار يا شباب.

الحاضرون: (يرددون الصلاة على النبي) اللهم صلّ على محمد.

زائر: (يوزع كؤوس الماء والمرطبات) زيدوه صلاة.

الحاضرون: اللهم صلّ على سيدنا محمد.

أبوخالد: (نهض يتمشى ويتحدث، كما كان أبو محمود يفعل) اجلس أنت يا أبا محمود في صدر الدار (يجلس أبومحمود) اجلس - أنت متعب رجعت لنا من القبر - أنا أحكي للشباب مغامرتك في قلعة حلب. اسمعوا يا شباب. في إحدى زياراتنا إلى قلعة حلب أيام الصبا... صادف أخونا أبومحمود صندوقاً من حديد يجري على سكة حديدية. اشتهى أبومحمود الركوب في الصندوق. طلب منّا أن ندفع به الصندوق.

حذّرناه من النتيجة المجهولة، فلم يسمع تحذيرنا. انطلقت الدواليب تدور بسرعة هائلة. لأمر يريده الله انقلب به الصندوق قبل الهاوية. نجا من الموت، الحراس الفرنسيون ألقوا عليه القبض وألزموه دفع غرامة مالية. أليس كذلك يا أبا محمود؟

أبومحمود: (ضاحكاً) صدقت. صدقت يا أبا خالد.

أبوحسن: (ينهض حين يجلس أبوخالد) اسمحوا لي أن أحكي حكاية ثانية عن هذا الرجل الصالح، ولا أزكّي على الله أحداً، حينما اعتقله الفرنسيون قبل الاستقلال بشهور، خشي أبومحمود فوات وقت الصلاة في إحدى محطّات الاستراحة على طريق السفر. كان الجنود الفرنسيون يمنعون المعتقلين من الاقتراب من ساقية الماء. رفض

سلّمت أمي وهي مذهولة غير مصدقة

أخونا أبومحمود تحذيرات زملائه. هجم فجأة يريد الوضوء، فتلقاه حارس زنجي بسنان البندقية (الحربة) يريد قتله لولا أن صاح به الضابط الفرنسي يزجره في اللحظة الأخيرة، ونجا أبومحمود من موت مؤكد، وأخذ يتوضأ متشفياً من الحارس، حتى جعله يهرب من وجهه.

هل تذكر ذلك يا أبا محمود؟

أبومحمود: (ضاحكاً) نعم. أتذكر يا أبا حسن الحبيب.

أبوحسن: لقد مات من مات من أصدقاء أبي محمود في السجن، أو على الفراش، أو في حوادث الطرق، ومات أبومحمود ولم يمت. لقد أحياه الله بعد موته ليشهد هذا الاحتفال الذي يستحقه. الموت والحياة بيد الله تعالى يا ناس. من لم يمته الله تعالى فلن تقتله شِدّة. ألم تكن تحت التراب قبل ساعات يا أبا محمود؟

أبومحمود: لا لم أكن تحت التراب. بل كنت أنا نائماً فوق التراب.

(يضحك الحاضرون. يتبادلون الابتسامات والتلويح بالأيدي)

أبومصطفى: (مخاطباً شيخاً عالماً جالساً بالقرب من أبي محمود) ما رأيك يا سيدي الشيخ بقصص أخينا أبي محمود العجيبة؟

الشيخ العالم: العلم عند الله. يحضرني يا أبا مصطفى حديث شريف رواه الإمامُ مسلمٌ في صحيحه. قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب. قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون».

الحاضرون: صدق رسول الله. اللهم اجعلنا منهم.

المشهد الرابع

(الزمان: منتصف الليل. المكان: نفس المكان السابق. بعض المصابيح الكهربائية مطفأ وبعضها يومض. الهدوء مخيم بعد انصراف معظم الزوار. لم يبق إلاّ القليل من الأقارب والجيران والأصدقاء يلتفون حول أبي محمود)

أبوخالد: والآن - يا أبا محمود العزيز - لقد انصرف الناس، وهدأت الأصوات، ولم يبق إلاّ نحن، أهلك وأحبابك ننتظر هذه الساعة. نريد أن نسمع منك قصتك الأخيرة. كيف متّ وكيف أحياك الله بعد موتك؟

أبو حسن: أي والله. الله يحيي ويميت، يا أخي.

أبو محمود: أنا أشدّ تلهفاً منكم لسماع القصة، ولفهم الأمور، على الرغم من تعبي الشديد.

أبوخالد: كلنا نؤمن بالحياة بعد الموت، لكننا لا نتوقع حدوث ذلك قبل يوم القيامة، وبعد وفاة الأنبياء والرسل أصحاب

المعجزات، عليهم السلام.

أبومحمود: صدقت. هذا صحيح.

أبوخالد: يا أبا محمود - لا مؤاخذة - لقد دفناك منذ أسبوع، بسبب حادث السيارة الذي أودى بحياتك قرب مدينة حمص، وأنت في طريقك إلى دمشق، فكيف أحياك الله عز وجلّ، بعد موتك، وهو قادر؟

أبومصطفى: وماذا رأيت في الدار الآخرة؟

أبومحمود: (مستغرباً) أنا؟! دفنتموني قبل أسبوع؟

الحاضرون: نعم. نحن دفناك قبل أسبوع.

أبومحمود: لم يحدث لي حادث، كما تتصورون.

أبوخالد: ولو، يا أبا محمود.

أبومحمود: (مؤكداً) ولم أمت.

أبوحسن: ولو، يا أبا محمود.

أبو محمود: ولم أدفن، يا إخوان.

أبوخالد: سبحان الله. لقد أهلت التراب عليك بيدي.

أبومحمود: أنت أهلت التراب عليّ بيديك؟

أبوخالد: نعم

أبوحسن: وأنا حملت نعشك على كتفي.

أبومحمود: أنت حملت نعشي على كتفك؟.

أبوحسن: نعم

أبومحمود: لسنا في وقت مزاح. يا إخوان.

أبوخالد: ومن قال إننا نمزح في هذا الموضوع الخطير، يا أبا محمود؟

أبومحمود: عقلي لا يستوعب ما تقولون. يا إخوان. أنتم عندي صادقون، لكنني أعلم علم اليقين أنني لم أمت.

الحاضرون: نحن نشهد جميعنا بأنك متّ، يا أبا محمود.

أبومحمود: أنا لم أمت، ولو شهد غيرَ ذلك أهلُ الأرض كلُّهم.

الحاضرون: ولو، ولو، يا أبا محمود؟

أبومحمود: ولم أدفن ولو شهد الناسُ كلُّهم، أحياؤهم وأمواتهم.

أبوحسن: لا تغضب، يا أبا محمود. ليس في الأمر مزاح، ولا احتيال.

أبومحمود: أستغفر الله، أنا ما قصدت هذا.

أبوحسن: نحن نعلم أنك ما قصدت هذا ولا غيره.

أبومحمود: لا مؤاخذة، ما تقولونه شيء غريب.

أبوخالد: الله تعالى قادر، يا أبا محمود.

أبومحمود: هل في ذلك شك، يا إخوان؟

أبوخالد: فلماذا تغضب، يا حبيبنا؟

أبومحمود: عقلي، يا إخوان، عقلي لا يستوعب، لا مؤاخذة لا يهضم ما تقولون.

أبومصطفى: فسّر لنا إذا سمحت ما يلي: استلمنا من الشرطة جثتك.

أبومحمود: جثتي؟

أبومصطفى: وهويتك الشخصية.

أبومحمود: هويتي؟

أبومصطفى: ومبلغ ثلاثين ألف ليرة سورية.

أبومحمود: ثلاثين ألف ليرة؟

أبومصطفى: نعم استلمنا النقود التي كانت معك كلها، لم ينقص منها قرش واحد.

أبومحمود(موجهاً خطابه إلى الآخرين) أنتم استلمتم النقود كاملة؟

الحاضرون: نعم

أبومحمود: (بعد صمت وتفكير قليل) يتهلل وجهه بابتسامة عريضة، ويشرق وجهه قائلاً: الآن بدأت أفهم القصة، يا إخوان. لما سافرت من مدينة حلب إلى دمشق، صحبني في السيارة ثلاثة رجال غرباء الأشكال. صاروا يكلمونني من أمامي ومن ورائي وعن شمالي. في حمص حين رجعنا إلى السيارة من الاستراحة تغيب الرجال الغرباء الثلاثة بلا سبب واضح. لم أنتبه وقتها إلى سرقة مالي وهويتي الشخصية إلاّ بعد أن وصلنا إلى مدينة دمشق وبعد أن نزلت من السيارة، وبعد أن ذهب أكثر المسافرين. فتشت هنا. فتشت هنا (يشير بيديه كيف فتش صدره وجيوبه) لم أجد شيئاً. ضربت كفاً بكف. تعبت في البحث عن المال، عن الرجالِ، عمن يعرفهم. لم أقع لهم على أثر، حتى يئست. لم أجد حلاً إلاّ الشكوى إلى الله تعالى. جمعت أجرة العودة إلى الرقة من المحسنين. الله كريم.

صاح الرجل فجأة: من لم يمته الله لن تقتله شدة..

الحاضرون: لا إله إلاّ الله.

أبومحمود: لا أخفي عليكم أنني حزنت على ضياع المبلغ الذي جمعه شركائي بعرق الجبين حلالاً طيباً لشراء سيارة كما تعلمون، لكنني أحتسب ذلك كله عند الله.

أبوخالد: ألم نقل لك إن المبلغ ما ضاع، استلمناه؟

أبومحمود: صحيح، صحيح، تذكرت، بذلت جهدي في جمعه حلالاً وفي حفظه. ماذا بوسعي أن أفعل أكثر مما فعلت؟ لعل الرجل الذي سرق المبلغ ندم على فعلته، فتاب، وألهمه الله أن يرسل المال والهوية.

أبوحسن: أنت طيب القلب، يا أبا محمود، وظنك دائماً بالناس ظن حسن.

أبومحمود: هذا من طيبك.

أبوخالد: الرجل الذي سرق منك المبلغ يمكن أن يكون هو صاحب الجثة المشوهة التي استلمناها، قتل في حادث سيارة ومعه هويتك الشخصية والمبلغ. ظن الشرطة أنه هو صاحب الهوية، فأعادوها مع المبلغ.

أبومحمود: استلمتم جثة مشوهة مع ثلاثين ألف ليرة.

الحاضرون: نعم، بالتمام والكمال.

أبومحمود: لا إله إلاّ الله. قل حسبي الله، وعليه يتوكل المتوكلون.

الحاضرون: لا إله إلاّ الله.

(ستار)

من ثمرات المطابع:

مقارنة بين أسلوب الحديث وأسلوب القرآن*

للأستاذ/ مصطفى الزرقاء

الفرق عظيم جداً بين أسلوب الحديث النبوي وأسلوب القرآن، في طريقة البيان العربي. فبينهما شقة واسعة لا يشبه أحدهما الآخر لدى أهل البصر باللغة وأساليبها، وبالمأثور المألوف من بيانها قديمه وحديثه.

وإن هذا التفاوت الكبير في الأسلوبين إذا أمعن الإنسان فيه النظر وكان ذا ملكة بيانية لا يترك لديه مجالاً للشك والريبة في أن الحديث النبوي والقرآن صادران عن مصدرين مختلفين.

فالحديث النبوي كما سنرى في نصوصه التي سنعرض أمثلتها قريباً جاء كله على الأسلوب المعتاد للعرب في التخاطب، تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهم والتعليم والخطابة في صورها ومناهجها المألوفة لدى العرب، ويعالج جزئيات القضايا والمسائل ويجيب عنها، ويحاور ويناقش كما يتخاطب سائر الناس بعضهم مع بعض. ولكن يتميز من الكلام العربي المألوف بأن فيه لغة منتقاة غير نابية، وأن فيه إحكاماً في التعبير للمعاني المقصودة بأوجز طريق وأقربه دون حشو، مما استحق به تسميتَه بجوامع الكلم. فهو كلام عربي من الطراز المعتاد المألوف، لكنه على درجة عليا من أساليب البلغاء المعهودة.

الحديث النبوي جاء على المعتاد في لغة التخاطب عند العرب، تتجلى فيه الخطابة والمحادثة والتعلم

أما أسلوب القرآن فهو أسلوب مبتكر لا يجد الناظر فيه والسامع شبيهاً له فيما يعرف من كلام العرب وأساليبهم. يعالج الكليات، ويفرض من الأحكام، ويضرب الأمثال، ويوجه المواعظ، في عموم لا تشبهه العمومات المألوفة، وخطاب فيه من التجريد ما يجعل له طابعاً خاصاً منقطع النظير.

فلو أخذ قانون تشريعي وقورن بأحكام القرآن الآمرة الناهية لما كان فيه شبه في الأسلوب أصلاً، ولو اتحد موضوع الأمر والنهي فيهما.

وإذا أخذ كتاب تاريخ وقورن بما في القرآن من قصص تاريخي لما وجد أيضاً بينهما شبه في الأسلوب ولو أنهما عالجا قصة واحدة.

ولو أخذ كذلك كتاب مواعظ وأخلاق وقورن بما في القرآن من مواعظ لما كان بينهما أيضاً شبه أصلاً في الأسلوب ولو اتحد الموضوع.

وهكذا لا يمكن أن يجد الباحث كلاماً أو كتاباً في اللغة العربية يمكن أن يتحد أو يتشابه أسلوبه وأسلوب القرآن. فهو صورة جديدة مبتكرة في البيان العربي جارية على قواعد العرب وطريقتهم في التركيب، لكنه يختلف عنها كل الاختلاف فيما نسميه بالأسلوب، بحيث إنك لو خلطت سورة أو جملة آيات بمجموعة أخرى من الكلام العربي لاستطعت أن تميزها منها بسهولة.

مأثورة بليغة:

أما الحديث النبوي فكثيرا ما يشبه أسلوبه أسلوب سائر الأقوال والحكم المأثورة إذا كانت بليغة. ولذلك كثيراً ما توضع الأحاديث كذباً على لسان رسول الله عليه الصلاة والسلام فتشتبه من حيث لفظها ومعناها على السامع، ولا يمكن البحث عن أصالتها وصحتها إلا عن طريق السند.

ومن المسلم به لدى أهل البصر الأدبي أنه من المتعذر على الشخص الواحد أن يكون له أسلوبان في بيانه يختلفان اختلافاً كبيراً، أحدهما عن الآخر، ويجري كل منهما في ذاته على نسق متشابه، لا يختلف في درجة بلاغته وطريقته، ويختلف عن أسلوبه الآخر اختلافاً كلياً، فهذا مما لم يعهد في التاريخ الأدبي المعروف، بل إذا أراد أحد الكتاب أن يَخْرجَ عن الأسلوب الذي هو متميز فيه بأسلوب آخر فلا بد أن يظهر فيه التكلف، ولا يمكن أن يتقن ذلك الأسلوب الثاني، فما بالك بهذا التفاوت الكلي بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث.

فمن يتوهم من الأجانب أن القرآن هو مجموعة من تأليف النبي عليه الصلاة والسلام إلى جانب أحاديثه إنما منشأ وهمهم هذا عدم إمكانهم أن يتذوقوا الفارق العظيم بين الأسلوبين لكي يعرفوا إمكان وحدة المصدر فيهما أو اختلافه.

هذا الاختلاف الواسع المدى بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي الذي يوجب الحكم باختلاف مصدرهما يتجلى واضحاً لكل ذي إدراك في الأسلوب

(*) من كتاب: في الحديث النبوي، ط٢، دمشق، مطبعة الجامعة السورية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

العربي، وذوق في لسان العرب من المقارنة بالأمثلة الواردة منهما في موضوع واحد:

فلو أننا أخذنا من القرآن آيات، ومن الحديث النبوي أحاديث في موضوع تلك الآيات نفسه، لرأينا بهذه المقارنة من اختلاف الأسلوبين الحاكم باختلاف المصدر ما فيه البرهان الكافي:

١ـ فلنأخذ مثلاً قول القرآن العظيم في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾.

ولننظر مقابله في المعنى نفسه قول النبي عليه الصلاة والسلام:

«لتأمرن بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر، أو ليسلِّطن الله عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم».

٢ـ ولنأخذ مثلاً في موضوع الإخاء في الدين قول القرآن العظيم في سورة الحجرات:

﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾.

ولننظر مقابله في نفس المعنى قول النبي عليه السلام:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه».

ومعنى (يسلمه) أن يتركه لعدوه فلا يحميه ولا يمنعه منه.

٣ـ ولنأخذ أيضاً قول القرآن العظيم في موضوع الإخاء الإنساني العام والتآلف والتفاضل بالتقوى والصلاح، لا بالعرق والنسب، ولا بالمال والنشب:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾.

ولننظر في المعنى نفسه أقوال النبي عليه الصلاة والسلام التالية:

«أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر[1] على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى».

«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

«المؤمن آلف مألوف، ولا خير فيمن لا يَألف ولا يُؤلَف».

٤ـ ولنأخذ أيضاً قول القرآن العظيم في ارتباط صلاح الحياة الاجتماعية بنظام العقوبة على الجنايات.

﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تعقلون﴾.

ولننظر في مقابله قول النبي عليه الصلاة والسلام:

«إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحاً».

٥ـ ولنأخذ أيضاً قول القرآن في وجوب أداء الأمانة والحكم بالعدل:

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعاً بصيراً﴾.

ولننظر في مقابلة أقوال النبي عليه الصلاة والسلام:

«أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

«لا تُقدَّس أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوي غير مُتعتَع»[2].

الأسلوب القرآني مبتكر، يعالج الكليات، ويفرض الأحكام ويوجه المواعظ

بون كبير:

وهكذا إذا تقصينا الموضوعات والمعاني التي وردت في القرآن وفي الحديث معاً نجد بينهما في الأسلوب العربي هذا البون الكبير الذي يجزم معه كل ذي بصر وإنصاف أن شخصاً لا يمكن أن يصدر عنه هذان الأسلوبان معاً، ولكل منهما طابعه الخاص البعيد كل البعد عن الآخر، وكل منهما في ذاته وفي جميع أمثلته ونصوصه متشابه لا يختلف، بل يجري على غرار واحد، فيحافظ على طريقته المتميزة، وعلى اختلافه عن غيره ذلك الاختلاف الكبير.

وإنه ليتجلى من هذه الأمثلة المقارنة ومن نظائرها ما أشرنا إليه آنفاً من أن أسلوب الحديث النبوي هو أسلوب التخاطب العادي المألوف بين العرب في بيانهم وأحاديثهم ومحاوراتهم وحكمهم وأحكامهم ووصاياهم ونصائحهم، لا يخرج عن هذا السنن المألوف بينهم، وإنما يمتاز بأنه من جوامع الكلم ومن حكيم البيان وفصيح اللغة، وبخلوّه من الحشو ومن الصور الخطابية العاطفية التي تعتمد على العاطفة وحدها دون العقل. وبتعبير آخر: إنه يتجلى في أسلوب الحديث النبوي العقلُ الناطق بأبلغ وأوجز تعبير معتاد. أما أسلوب القرآن فيتجلى فيه الابتكار الذي لم يعهد له مثيل، ولا يشبهه شيء من كلام العرب في طرائق بيانه ومناهج خطابه.

اختلاف الشخصية التي ينم عنها الأسلوبان:

هذا، وإذا كان كل أسلوب بياني يشف عن ذاتية وشخصية في المتكلم فمن وراء ذلك التفاوت العظيم في أسلوبي القرآن والحديث النبوي. من الوجهة البيانية يستشف القارىء والسامع تفاوتاً أعظم منه في هذه الذاتية التي ينبىء عنها الكلام.

فعندما تسمع القرآن تتجلى لك من خلال آياته ذاتية تتكلم من جو عُلُوّ وقوة، وسطوة، وقدرة، وحكمة ورحمة. وهذه الذاتية القوية العظمى التي تتجلى من وراء أسلوب القرآن لا تضعف حتى في المواطن التي تعبر فيها عن الرحمة، وإن قوتها واحدة في جميع سوره وآياته. فهي دائماً ذاتية جبارة قادرة منتقمة عادلة حكيمة رحيمة، آخذة بزمامين من الترغيب والترهيب، ذات سلطان مطلق.

فانظر وتصورها مثلاً من خلال نحو الآيات التالية:

﴿الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض﴾

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾.

﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾.

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

﴿أولَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، وكانوا أشد منهم قوة، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض، إنه كان عليماً قديراً. ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾.

تتجلى في القرآن ذاتية لها سلطان مطلق، آخذة بالترغيب والترهيب

﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾.

﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه: قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾.

أما الحديث النبوي فإنك تشعر من وراء أسلوبه بشخصية بشرية، وذاتية يعتريها الضعف والقوة، ولكن قوتها من لون آخر: ففيها ضعف الذات العاجزة أمام الصعوبات القاهرة تارة، وفيها قوة الثقة بالحق تارة أخرى. فكثيراً ما تشعر من أسلوب الحديث النبوي بشخصية تعتز بهذا الضعف الذاتي أمام الله، إلى جانب اعتزازها بقوة الأمانة والثقة بالحق. ففيها ضراعة البشر وتواضع الزهاد، إلى جانب حكمة العلماء وقوة المبلغين الأمناء. فانظر وتصور هذه الشخصية في لون قوتها من خلال قول الرسول عليه الصلاة والسلام لعمه أبي طالب حينما هددته قريش فنصحه بترك الدعوة.

«والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وتصورها في شعورها بالضعف الذاتي من خلال الأدعية المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام في مناجاة ربه، كقوله بعدما خرج لدعوة ثقيف وعاد بالأذى والخذلان:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري. إن لم تكن ساخطاً عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تحلّ عليّ غضبك، أو تُنزل عليّ سخطك. لك العُتبىٰ حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وقوله: **«اللهم إني أسألك رحمة من عندك تَهْدي بها قلبي، وتجمع شملي، وتلمّ بها شعثي، وتردّ بها الفتن عني»**(٣).

ويقول السيد أحمد بن المبارك نقلاً عن شيخه عبدالعزيز الدباغ رحمهما الله تعالى في «الإبريز» في معرض بيان الفرق بين الحديث النبوي والقدسيّ وبين القرآن، بعد كلام طويل يحلل فيه الفرق من نواح روحية، ما نصُّه:

«وكل من له عقل، وأنصت للقرآن، ثم أنصت لغيره أدرك الفرق لا محالة. والصحابة رضي الله عنهم أعقل الناس، وما تركوا دينهم الذي كانت عليه الآباء إلا بما وضح من كلامه تعالى. ولو لم يكن عند النبي ﷺ إلا ما يشبه الأحاديث القدسية ما آمن من الناس أحد، ولكن الذي ظلت له الأعناق خاضعة هو القرآن العزيز الذي هو كلام الرب سبحانه وتعالى».

وهذا الكلام إنما يرمي إلى ما أوضحناه من تفاوت الأسلوبين تفاوتاً كلياً، وأن أسلوب القرآن بِدْعٌ مبتكر لا يشبهه شيء من كلام العرب. ثم قال الشيخ عبدالعزيز أيضاً -رحمه الله تعالى- بعد ذلك:

«كل من استمع القرآن، وأجرى معانيه على قلبه، علم علماً ضرورياً أنه كلام الرب سبحانه. فإن العظمة التي فيه، والسطوة التي عليه، ليست إلا عظمة الربوبية وسطوة الألوهية. والعاقل الكيس إذا استمع لكلام السلطان ثم استمع لكلام رعيته، وجد لكلام السلطان نَفَساً به يعرف؛ حتى إنا لو فرضناه أعمى وجاء إلى جماعة يتكلمون، والسلطان مغمور فيهم، وهم يتناوبون الكلام، لميز كلام السلطان من غيره بحيث لا تدخله في ذلك ريبة».

في لغة الحديث النبوي ذاتية تعتز بضعفها أمام قوة الخالق الجبّار

وهذا الكلام كأنما يعني به، رحمه الله ما سميناه اختلاف الشخصية التي تستشف من وراء الكلام.

وبعد، فهذه مقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي إنما نقصد بها الموازنة بين الأسلوبين من الناحية العربية البيانية فقط، وما توحي به من اختلاف الذاتية والشخصية مما يدل على اختلاف المصدر دون النظر إلى النواحي التي يذكرها العلماء والأدباء الباحثون في وجوه إعجاز القرآن المتعددة لأنها تخرج عن موضوعنا هنا.

الهوامش

(١) يفسر أهل اللغة والحديث الأحمر هنا بالأبيض من الناس، وجمعه (أحامر). أما الأحمر من الأشياء مراداً به ذو اللون الأحمر المعروف فجمعه: «حمر» بضم فسكون (انظر: النهاية لابن الأثير، ولسان العرب).

(٢) التعتع: الإكراه على الأمر حتى يقلق.

(٣) ر: «أقضية الرسول» للقرطبي ص/ ١٢٣.